Akkad Aljabal

facebook.com/permalink.php

29 أبريل 2020 ·
#ذاكرة_ثورة
مجزرة جمعة الغضب الريف الغربي

29.4.2011

اليادودة

شاهد على المجزرة

Ahmed Almasri
بعد الاجتياح الذي حدث لمدينة درعا في الساعات الأولى من فجر يوم ٢٥ نيسان عام ٢٠١١، وتقطيع اوصال المدينة وقطع كافة وسائل الاتصال والكهرباء وحتى مياه الشرب، تحولت المدينة إلى عدة قطاعات متباعدة تقطعها حواجز للجيش على جميع مداخل الاحياء والطرق الرئيسية.

كان منزلنا يبعد بضع مئات من الأمتار عن حاجز السكة الواقع ما بين حي الضاحية وحيّنا الذي يعتبر المدخل الغربي لمدينة درعا.

كنا كل ليلة (كما جميع احياء المدينة) بعد ان يقوم الأهالي بالصدح بالتكبيرات ليلا، نشكل مجموعة من شباب الحي يتم اختيارهم لحراسة الحي ليلا خوفا من قدوم عناصر الجيش او محاولتهم لاجتياح أي منزل او اعتقال أحد سكان الحي وكانت مهمتنا تقتصر على تنبيه الأهالي فقط وهذا حدث عدة مرات وتم إطلاق النار على مكان تجمعنا ليلا أكثر من مرة.

في ليلة الخميس الثامن والعشرين من نيسان كنت مع المجموعة المناوبة طوال الليل ودخلت المنزل للحصول على قسط من النوم عند ساعات الصباح الأولى، وللأمانة لم نكن وقتها على علم ان يوم الجمعة ستحمل اسم جمعة الغضب لعدم وجود أي وسيلة تواصل مع العالم الخارجي وقتها لمعرفة ما يحدث باستثناء وجود هاتف أردني معي وهو الوحيد بكل المنطقة حسب معلوماتي آنذاك.

بدأت حشود الناس القادمة من جميع القرى الغربية (اليادودة، طفس ، المزيريب ، تل شهاب وحتى نوى) بالتجمع أمام منزلنا وبدأ الناس بطرح الأفكار عن إمكانية البدء بالمسير باتجاه الحاجز او الاكتفاء بالتظاهر بنفس الموقع وتم الاتفاق على ان يتم الانتظار ريثما يكتمل قدوم الناس من القرى الأخرى وهذا ما حصل وكانت الاعداد قد وصلت لعدة آلاف حسب تقديري مع اقتراب الوقت الى منتصف الظهيرة تقريبا.

أتذكر بذلك اليوم انه تواجدت سيارة (هونادية كما تسمى بدرعا) بيضاء اللون تحمل علم الثورة الحالي على مقدمتها وبالنسبة لي كانت اول مرة أرى فيها علم الثورة الحالي يحمل في مظاهرة ، ولكن العديد من الناس تقدم من العلم وقاموا بتمزيقه كونه كان يرمز للاستقلال او الانفصال (كما تعلمون في تلك اللحظات لا يمكن ان نقاش أي تفصيل).

بدأت الاعداد بالفعل بالتجمهر وبدأ عدد من الشباب بالتقدم باتجاه الحاجز وانا اذكر لحظة البدء بإطلاق النار من قبل الحاجز علينا خلال لحظات، انا شخصيا وللحظات قد تكون أجزاء من الثانية لم اصدق ما يحدث ولم أتوقع نهائيا ان يتم اتخاذ قرار اطلاق النار بهذه السرعة وهذه السهولة، بتلك اللحظة تشكلت لدي قناعة بأن هذا النظام لا يأبه بحياة أي من مواطنيه بقدر ما يخاف من خسارة الحكم او حتى المساس فيه او زعزعة سياسة الرعب التي عمل عليها لسنوات طويلة.

تلك اللحظة اعادتني عشرات السنوات الى الوراء، عندما كنت في خدمتي العسكرية وحصل نقاش مع احد الضباط (علوي من القرداحة) وقال لي : كن على ثقة نظام الحكم في سوريا لن يتغير الا بحدوث مجازر. وقتها لم أكن اتخيل ان المجازر قد تصل لهذا الحد او قد تنفذ على ايدي ابناء الوطن الواحد.

تلك الأفكار حاصرتني لجزء من الثانية ولكني عدت ولملمت نفسي بلحظات لأرى الأجساد، أجساد الشهداء تتساقط من حولي ركضت عائدا باتجاه المنزل لأجد المئات تحاول الاختباء بجدران المنزل خوفا من الرصاص الذي كان بمعنى الكلمة أكثر من زخ المطر. فتحت باب منزلنا ليقوم الناس بالدخول فمنهم من دخل ومنهم من اختبئ خلف المنزل او بجانبه.

من الصعب جدا بعد هذه السنوات وصف ما جرى او ما حدث لأنه يفوق الوصف، حتى ردود الافعال بتلك اللحظة كانت غريبة وغير متوقعة. الكثير من الصور لا تزال عالقة بذاكرتي، أولى تلك الصور هي تساقط اغصان واوراق أشجار الكينا المزروعة على جانبي الطريق من درعا وصولا لجميع قرى الريف الغربي والتي ربينا وكبرنا ونحن نلعب ونحتمي بأغصانها بفعل الرصاص الكثيف الذي لا يمكن وصفه.

ثاني تلك الصور هي ازيز نوع خاص من الرصاص الذي لم اسمعه من قبل رغم معرفتي بأنواع الأسلحة بحكم خدمتي العسكرية التي كنا نسمعها بين الحين والأخر، ليس جميع الرصاص وانما البعض القليل منها والذي تبين لنا فيما بعد بانها تعود لبنادق القناصة التي كان مطلقوها متمركزين على سطح خزان مياه الحي.

الصورة الثالثة والتي كانت الأعنف هي سقوط الشهداء والجرحى من حولنا ومعظم الشهداء كانت اصابتهم في الرأس او الناطق العلوية من الجسم، كنا للحظات قد تمتد لدقائق لا نعي ما يجري حولنا او لا نعلم ما يجب علينا ان نفعل، من ضمن الأشخاص القليلين الذين عرفتهم داخل منزلنا شخص من عائلة حريدين من طفس وقد رأينا شخص مصاب بخاصرته ممدد امام المنزل فقال لي يجب ان نسعفه، صرخنا على ذلك المصاب وسألناه ان كان يستطيع الزحف باتجاهنا وبالفعل بدأ بالزحف.

في تلك اللحظة بدأنا شيئا فشيئا باستيعاب ما يحدث وقررنا البدء بسحب الجرحى والمصابين قدر الإمكان، قامت والدتي بإحضار ما يتوفر بمنزلنا من معقمات ومطهرات وضمادات.

استمرت الموجة الأولى من إطلاق النار المستمر اقل من خمسة عشرة دقيقة حسب تقديري ولكنها صدقوني كانت بطول دهر كامل.

تم سحب أكثر من اثني عشر مصاب بالبداية الى داخل المنزل استشهد ثلاثة منهم على الفور، عند توقف إطلاق النار بدأنا بوضع المصابين بشاحنة صغيرة كانت متواجدة تعود لصديق لي من المزيريب ووضعنا فيها على ما اذكر حوالي خمسة عشرة شخصا وانطلقت السيارة بسرعة باتجاه الريف الغربي لإسعافهم.

بدأت الناس بتلك الاثناء استجماع قواها والبحث عن بعضها البعض وانتشال جثث الشهداء والجرحى ، واتذكر أيضا بتلك اللحظة تحديدا بعض انتهاء الموجة الأولى من اطلاق النار ، احد العساكر المجندين المتمركزين على الحاجز القى سلاحه وبدأ بالركض باتجاهنا ونجح بذلك ، استقبله الناس بمشاعر متضادة فمنهم من حاول الوصول اليه وضربه ولكن الكثير قاموا بحمايته ووضعه على دراجة نارية توجهت بسرعة خارج المنطقة، كان شابا صغيرا لا يتجاوز العشرين من عمره واتوقع انه كان من أبناء احدى المحافظات الأخرى، لم أتمكن من الوصول اليه او التحدث معه.

لا زلت حتى اليوم لا أستطيع وصف ما حدث واجزم انه لا أحد يستطيع وبالفعل كما يقولون ليس من سمع كمن رأى.

لا زلت اذكر ذلك الشاب الصغير الذي لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره عندما كان يركض عائدا باتجاهنا كيف عالجه القناص برصاصة برأسه من الخلف فسقط صريعا على الفور على جانب الطريق فلم يستطع أحد الاقتراب منه او سحبه لبعد ساعات من ذلك.

كيف أنسى من قدم في اليوم التالي الي منزلنا يبحثون عن أبنائهم الذين لم يعودوا الى منازلهم فخرجنا للبحث عنهم لنجد جثثهم بين حقول القمح على بعد مئات الامتار من موقع الحدث. الكثير منهم....

في مساء ذلك اليوم يوم الجمعة قدمت الينا مستغيثة بنت ناطور معمل المياه الغازية في حينا، ذلك الرجل المقعد الذي يعيش مع زوجته وابنائه الأطفال وقالت انه بعد وقف إطلاق النار بدقائق دخل العساكر عليهم على الغرفة الوحيدة التي يعيشون فيها على مدخل المعمل وفتحوا النار عليهم وهربوا وان اباها مصاب ولا يستطيع التحرك.

كان المعمل يتوسط المسافة بيننا وبين الحاجز، قمت انا واثنين من أبناء حينا بالتقدم نحو المعمل وحاولت انا بالبداية الزحف نحو غرفتهم وقمت بربط نفسي بحبل كي يتم جرنا لاحقا، وبعد زحفي لمسافة حوالي مئة متر وصلت وفتحت باب الغرفة فوجدت الرجل قد تلقى عدة طلقات منها ما مزقت احشائه، قمت بسحبه خارج الغرفة ولكن أصدقائي لم يتمكنوا من سحبنا معا، فتركت الرجل وعدت وحدي ثم ارسلنا شخصا اخر اقل مني حجما ووزنا ونجحنا أخيرا بسحبه بعد أكثر من ساعة ولكنه قد فارق الحياة بعد ذلك بساعات.

في تلك الليلة ايقنت فظاعة الواقع الذي كنا نعيشه وايقنت اننا امام وحوش لن تتردد ابدا بقتل كل من يقف في طريقها، لم ولن أنسى ابدا ذاك اليوم ولا اكذب ان قلت انه من ذلك التاريخ وحتى لحظة كتابة هذه السطور لا تمر ليلة من دون استذكار الكثير مما رأيت ولكن ذاك اليوم كان بمثابة نقطة تحول بالنسبة لي شخصيا بالمضي قدما في مقاومة هذا النظام.

.....

الفيديوهات

-تجمع أهالي الريف الغربي في بلدة طفس

-تجمع أهالي الريف الغربي والتوجه إلى بلدة اليادودة

-اطلاق نار على المتظاهرين وسقوط شهداء وجرحى

يتبع..... مجزرة مساكن صيدا

تدقيق

ومتابعة

عمر الحوراني عمران مسالمة Odai Al Talab